«النبر في اللغة العربية»

علي حسن مزبان

النبر ظاهرة عرفتها أغلب لغات العالم، وتختلف اللغات في استخدامها للنبر ، فبعض اللّغات يُستخدم فيها للتفريق بين المعاني ، ويستخدمه وحدة صوتية (فونيماً) ولذلك سمّيت بـ " اللغات النبرية "، وبعض اللغات لا تستخدم النبر فتُسمَّى بـ " اللغات غير النبرية " وتتميز بأنها تثبت النبر في موضع معيّن ومن تلك اللغات، اللّغة الفنلندية والتشيكية ويكون نبرها على المقطع الأخير في اللّغة البولندية ، كذلك تلجأ اللغة الفرنسية والهنكارية إلى تحديد موضع النبر[١]. ونرى أنَّ النبر عند استعماله فونيماً يكون متغيّراً ممّا يجعله يستعمل للتفريق بين المعاني والدلالات والصيغ جرّاء تغيّر موضعه ، من ذلك الكلمة الإنجليزية (Subject) تتحول من اسم إلى فعل بتأثير النبر وتغيّره .

ولم يُدرس النبر قديماً – إذ لم نجد له في كتب النحو واللّغة أية إشارة – دراسة علمية كالتي استجدّت في الدراسات اللّغوية الحديثة ، ولهذا اختلف المحدثون في وجوده في اللّغة العربية أو عدم وجوده .

وإذا تتبعنا مصطلح " النبر " قديماً وحديثاً وجدنا اختلافاً واضحاً. فالنبر قديماً الهمز ، قال ابن منظور " النبر بالكلام الهمز ، وكلُّ شيءٍ رفع شيئاً فقد نبره ، والمنبور المهموز ، قال ابن الأنباري : النبر عند العرب ارتفاع الصوت "[٢] فالنبر الهمز عند القدماء ولذا قالوا إنَّ التميميين كانوا ينبرون والحجازيون لا يميلون إلى النبر إلاّ إذا تكلموا باللّغة الموحّدة ، ويرون أنَّ النبي عليه الصلاة والسلم فطن إلى ذلك

عندما أتى إليه رجل وقال له " يا نبيء اللّـه " بالهمز فقال له : لا تنبر باسمي أي : لا تهمز "[٣]، وقول عيسى بن عمر الثقفي " ما آخذ في قول تميم إلاّ بالنبر وهم أصحاب النبر ، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا "[٤].

أما حديثاً فالنبر " هو نشاط في جميع أعضاء النطق في وقت واحد " والنبر هو الضغط " لأنَّ المرء حين ينطق بلغته يميل عادةً إلى الضغط على مقطع خاص من كل كلمة ، ليجعله بارزاً أوضح في السمع من غيره في مقاطع الكلمة ، وهذا الضغط هو الذي نسمّيه بالنبر "[٥].

أمّا الدكتور تمّام حسّان فقد ذكر أنَّ النبر وضوح نسبي لصوت أو مقطع إذا قُورن ببقية الأصوات "[٦].

أقول : للنبر علاقة بالمقطع الصوتي ونوعه إنْ كان طويلاً أم قصيراً مفتوحاً أم مغلقاً ، ولمّا لم يكن للعرب القدماء اهتمام بالمقطع الصوتي لم يهتموا بالنبر أيضاً .

وللنبر علاقة بكون الأصوات مجهورة أو مهموسة ، ففي حين تكون الأصوات مجهورة تقوى حركات الوترين الصوتيين ويقتربان أحدهما من الآخر ليسمحا بتسرب أقلّ مقدار من الهواء ، فتعظم لذلك سعة الذبذبات ويترتب عليه أنْ يصبح الصوت عالياً واضحاً في السمع ، أما مع الأصوات المهموسة فيبتعد الوتران الصوتيان أحدهما عن الآخر وبذلك يتسرب مقدار أكبر من الهواء "[٧].

ولهذا نقول إنَّ النبر خاصة من خواص المقطع فضلاً عن علاقته بالمقطع الصوتي والتنغيم ، ولمّا لم يكن عند العرب القدامى تصريح بالمقطع اختلف الباحثون المحدثون في وجود النبر في اللغة العربية فبعضهم أنكر وجوده في العربية الفصحى ، وعزا وجوده إلى اللهجات

العامية بقوله : " لا نصّ نستند إليه في إجابة مسألة : كيف كان حال العربية الفصيحة في هذا الشأن ؟ وممّا يتضح من اللّغة العربية نفسها وفي وزن شعرها أنَّ الضغط لم يوجد فيها أو لم يكد يوجد وذلك أنَّ اللّغة الضاغطة كثيراً ما يحدث فيها حذف الحركات غير المضغوطة وتقصيرها وتضعيفها ، ومدّ الحركات المضغوطة ، وقد رأينا أنّ كلّ ذلك نادر في اللّغة العربية . وإذا نظرنا إلى اللّهجات العربية الدارجة وجدنا فيها كلها فيما أعرف الضغط وهو في بعضها قوي وفي بعضها متوسط غير أنّها تتخالف في موضعه من الكلمة في كثير من الحالات ، فمن المعلوم أنّ المصريين يضغطون في مثل " مطبعة " المقطع الثاني وغيرهم يضغطون الأوّل ، فلو أنَّ الضغط كان قوياً في الزمان العتيق لكانت اللّهجات على أغلب الاحتمال حافظت على موضعه من الكلمة ، ولم تنقله إلى مقطع آخر "[٨].

أقول : هذا وهم وقع فيه المستشرق برجشتراسر لأن اللغة العربية الفصيحة حافلة بتقصير الحركات ومدّها وبالتضعيف ، ولو نظر في القراءات القرآنية لوجد ما سعى إليه ، أما مثاله في كلمة (مطبعة) فهذا لا يقاس عليه نتيجة التطور اللّغوي الذي يصيب اللغة ولهجاتها مما يؤدي إلى تغير النبر في كل لهجة .

وذهب (فنري فليش) إلى القول نفسه ، في قوله " نبر الكلمة فكرة ما تماماً لدى النحاة العرب ، بل لم نجد له اسماً في سائر مصطلحاتهم "[٩]. أقول : عدم ذكر النبر عند النحاة العرب لا يعني أن اللغة العربية خالية من النبر ، وقد نوّهنا لعلاقة النبر بالمقطع الصوتي ، ولمّا كان القدماء قد أغفلوا المقطع تصريحاً كذلك أغفلوا النبر ، أمّا عدم وجود اسمه في مصطلحاتهم فهذا مردود بما ذكره ابن منظور بقوله : النبر هو الهمز .

وتابعهم على زعمهم هذا من الباحثين العرب الدكتور عبدالرحمن أيوب والأستاذ الطيّب البكّوش[١٠]. من دون أن يكون لديهم دليل يستندون إليه ولكنهم تابعوا أساتذتهم من المستشرقين الذين تلمذوا لهم ، وهذا عيب في البحث ونقص في الاستقراء . أمّا بعضهم الآخر فقد أيّد وجود النبر في اللّغة العربية ، قال بروكلمان " في اللغة العربية القديمة يدخل نوع من النبر تغلب عليه الموسيقية ويتوقف على كميته المقطع ، فإنّه يسير من مؤخرة الكلمة نحو مقدمتها ، حتّى يقابل مقطعاً طويلاً فيقف عنده فإذا لم يكن في الكلمة مقطع طويل فإنَّ النبر يقع على المقطع الأوّل منها "[١١] وتابعه من المحدثين الدكتور إبراهيم أنيس والدكتور رمضان عبدالتواب والدكتور عبدالصبور شاهين والدكتور أحمد مختار عمر وجان كانتينو ، وقد وضع الدكتور إبراهيم أنيس قواعد لمعرفة النبر في اللغة العربية استناداً إلى نوع المقطع العربي وإلى قرّاء القرآن في القاهرة ، ذكر الدكتور إبراهيم أنيس أنَّ للنبر العربي أربعة مواضع أشهرها وأكثرها شيوعاً المقطع الذي قبل الأخير ولخّصها بقوله " لمعرفة موضع النبر في الكلمة العربية يُنظر أوّلاً إلى المقطع الأخير فإذا كان من النوعين الرابع والخامس كان هو موضع النبر ، وإلاّ نُظر إلى المقطع الذي قبل الأخير فإنْ كان من النوع الثاني أو الثالث حكمنا بأنّه موضع النبر ، أمّا إذا كان من النوع الأوّل نُظر إلى ما قبله فإنْ كان مثله أي من النوع الأول أيضاً ، كان النبر على هذا المقطع الثالث حين نعدّ من الآخر إلاّ في حالة واحدة وهي أنْ تكون المقاطع الثلاثة التي قبل الأخير من النوع الأول "[١٢] وتكلّم الدكتور إبراهيم أنيس على نوع آخر من النبر أسماه بنبر الجمل وهو أنْ يعمد المتكلم إلى كلمة في جملته فيزيد من نبرها ويميزها على غيرها من كلمات الجملة رغبة منه في تأكيدها أو الإشارة إلى غرض خاص ، ونبر الجملة شائع في كثير من

اللغات ففي جملة عربية مثل " هل سافر أخوك أمس ؟ " يختلف الغرض منها باختلاف الكلمة التي زيد نبرها ، فحين نبر كلمة (سافر) قد يكون معناها إنّ المتكلم يشك في حدوث السفر من أخي السامع ويظن أنَّ حدثاً آخر غير السفر هو الذي تمَّ ، فإذا ضغط المتكلم على كلمة (أخوك) فُهِمَ من الجملة أنَّ المتكلم لا يشكّ في حدوث السفر وإنّما الذي يشكّ فيه هو فاعل السفر ، فربّما كان أباه أو عمّه أو صديقه لا أخاه ، وأخيراً إذا زيد نبر كلمة " أمس " فهم من الجملة أنَّ الشكّ في تأريخ السفر "[١٣].

أقول : إن العربية لم تهتم بنبر الجمل لأنّها استعاضت عنه بالتقديم والتأخير أو ما أسمته مدرسة النحو التحويلي التوليدي بـ (الترتيب) فكلّ شيء قُصد توكيده وأهميته قُدّم وبذلك تكون الجملة المذكورة كالآتي : - "هل سافر أخوك أمس ؟ " "هل أخوك سافر أمس؟ " " هل أمس سافر أخوك ؟ " وهنا اختلفت المعاني باختلاف الجمل . وهذا ما بحثه سيبويه وأكّده عبدالقاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز .

والأدلّة على وجود النبر في اللُّغة العربية كثيرة ، فقد اعتادت العربية الفصحىعلى أنْ تقصّر الحركة الطويلة في المقطع المفتوح إذا كان يسبق مقطعاً آخر منبوراً ذا حركة طويلة ، فأصل مصدر (فاعل) في العربية القديمة " فيعال" بنبر المقطع الثاني وقد ترتّب على خلوّ المقطع الأوّل في النبر أنْ قصرت حركته فصار المصدر " فِعال " مثل (قاتل : قتالاً) أو (صارع : صِراعاً) بدلاً من (قيتالاً ، صيراعاً) ، ذكر أبو العباس المبرّد " ت ٢٨٦هـ " ويجيء في فاعل الفعالُ ، نحو : قاتلته قتالاً ، ورامیته رماءً وكان الأصل : فيعالاً لأنَّ فاعلت على وزن : أفعلت وفَعْلَتْ فكان المصدر كالزلزال والإكرام ولكن الياء محذوفة من فيعال استخفافاً وإنْ جاء بها جاءٍ فمعيب "[١٤].

وعلى العكس من ذلك بقيت تلك الحركة الطويلة في مثل " دينار

" و "ميعاد " في المقطع الأوّل لوجود نبر ثانوي على هذا المقطع ، وقد زال هذا النبر في بعض اللهجات الحديثة فقصرت الحركة وأصبح بعضهم يقول " دنار "[١٥]. كذلك يؤثر النبر أحياناً في الحركات ويؤدي إلى إسقاطها من المقاطع التالية له ، من ذلك إذا توالى مقطعان قصيران أولهما منبور فإنَّ حركة المقطع الثاني تسقط في الكلام من ذلك قولنا " وَهْوَ " بدلاً من " وَهُو " و" مَعْهُ " بدلاً من " مَعَهُ " و" فَلْيذهبْ " بدلاً من " فَلْيَذهبْ " .

وسقوط حركة لام الأمر الداخلة على الفعل المضارع عند اتصالها بالفاء أو الواو ظاهرة موجودة في القرآن الكريم ، وسبب سقوط الفتحة هو النبر الذي لم يتكلم عليه النحاة قطّ .

ومن مظاهر النبر في العربية انحراف صوت المدّ ، فقد ظهرت الألف الممالة نحو الواو أو الألف المفخّمة وكانت معروفة عند الحجازيين ، وظهرت عندهم في أثناء كتابتهم المصاحف إذ دوّنوا الألفاظ (الحياة ، الصلاة ، الزكاة) مرسومةً بالواو على النحو الآتي (حيوة ، صلوة ، زكوة) .

وتتمثل قيمة النبر في اللغة العربية في التفريق بين معاني المفردات من ذلك : لفظة " تأريخ " المهموزة أي المنبورة هي غير (تاريخ) ، والفعل (سأل) المهموز هو غير (سال).

وقد يحوّل النبر الهمزي أو التضعيف الفعل اللاّزم إلى المتعدّي فقولنا " خرج سعد من المسجد " والفعل هنا (خرج) لازم غير قولنا " أخرجتُ سعداً من المسجد " ؛ فالفعل " أخرجَ " صار متعدياً بفعل الهمز أو النبر .

وللنبر مظاهر كثيرة في اللّغة العربية والقراءات القرآنية تتمثل

في الهمز ومدّ الحركات والتضعيف تحدّث عنها الأستاذ الفاضل الدكتور عبدالصبور شاهين بإسهاب في كتابه " القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ".

أرجو أنْ أكون قد وفّقت في التعريف بهذه الظاهرة الصوتية في لغتنا الجميلة .. لغة القرآن الكريم .

الهوامش

(١) دراسة الصوت اللغوي : ١٨٨ .

(٢) لسان العرب : مادة (نبر) .

(٣) لسان العرب : مادة (نبر) .

(٤) لسان العرب : ٢٤/١ .

(٥) الأصوات اللغوية : ١٦٩ – ١٧٠ .

(٦) مناهج البحث في اللغة : ١٩٤ .

(٧) الأصوات اللغوية : ١٧٠ .

(٨) التطور النحوي للغة العربية : ٧٢ – ٧٣ .

(٩) العربية الفصحى : ٤٩ .

(١٠) محاضرات في اللغة : ٤٥ ، التصريف العربي : ٧٨ .

(١١) التطور اللّغوي : ٨٧ " نقلاً عن بروكلمان " .

(١٢) الأصوات اللغوية : ١٧٢ .

(١٣) الأصوات اللغوية : ١٧٤ .

(١٤) المقتضب : ١٠٠/٢ .

(١٥) التطور اللّغوي : ٨٩ .

مصادر البحث

١ – الأصوات اللغوية ، د . إبراهيم أنيس ، ط ٦ ، مصر ١٩٨٤م .

٢ – التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث ، الطيب البكوش تونس ١٩٧٣ .

٣ – التطور اللغوي ، مظاهره وعلله وقوانينه ، للدكتور رمضان عبدالتوّاب ، مطبعة المدني – ١٩٨٣ م.، ط ١ .

٤ – التطور النحوي للغة العربية لبرجشتراسر – أخرجه الدكتور رمضان عبدالتوّاب – مطبعة المجد ١٩٨٢ .

٥ – دراسة الصوت اللّغوي ، الدكتور أحمد مختار عمر ، ط ١ ، ١٩٧٧م .

٦ – العربية الفصحى نحو بناء لغوي جديد ، هنري فليش اليسوعي ، تعريب الدكتور عبدالصبور شاهين ، ط ١ ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦٦م .

٧ – لسان العرب لابن منظور (ت ٧١١هـ) دار صادر – بيروت .

٨ – محاضرات في اللغة – الدكتور عبدالرحمن أيوب ، مطبعة المعارف بغداد ١٩٦٦م .

٩ – المقتضب – أبو العباس المبرّد . ت ٢٨٦هـ " ، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة – عالم الكتب – بيروت .

١٠ – مناهج البحث في اللّغة ، الدكتور تمّام حسّان ، الدار البيضاء ١٩٧٩م .

* * *

اعتذار وتنويه

نتيجة لخطأ فنّي طارىء نسب بحث الأستاذ عبدالرزاق بلال تحت عنوان مقاربة أولية لكيفية اشتغال المقدمة في الخطاب النقدي القديم للأستاذ المصطفى الشاذلي .

ونلاحظ ، وهو ما أدّى إلى هذا الخطأ ، أن بعض الكاتبين .. لا يضعون أسماءهم على نصوص كتاباتهم ، فتصبح غفلاً ، وتبقى بلا نشر ، لأنها تُمسي مجهولة الهوية بالقياس إلى كاتبها . نرجو أن يعنى أعزاؤنا الكتاب بوضع أسمائهم على ما يكتبون إلينا ، وعناوينهم على رسائلهم ، أو في آخر البحث ليجنبونا الوقوع في الخطأ .

اعتذارنا للكاتب القدير.. ولقرائنا الكرام .

هيئة التحرير